

كتب بالإنكليزية

**النساء الفلسطينيات: النظام الأبوي
والمقاومة في الضفة الغربية***

**Palestinian Women: Patriarchy and
Resistance in the West Bank**

Cheryl A. Rubenberg

Boulder: Lynne Rienner Publishers,
2001. 371 pages. \$59.95 cloth.

يعتبر كتاب تشريل روبنبرغ إضافة تلقى الترحاب إلى مجموعة الكتابات البحثية عن المرأة الفلسطينية، على الرغم من أنه مثير للكآبة في نهاية المطاف. فهي تلتقط ببراعة فترة التسعينات التاريخية، أي فترة ما بعد الانتفاضة، عندما وصلت السلطة الفلسطينية وتعززت العناصر التي قللت أهمية النساء وأخضعتهن. والأهم أنها تطرح أسئلة مثيرة عن طبيعة التغيير الاجتماعي في غياب بنية دولة.

منذ بداية الحركة النسائية الفلسطينية في عشرينات القرن العشرين، كانت النساء الريفيات (ولاحقاً نساء مخيمات اللاجئين) هدفاً للتعبئة التي تقوم بها الحركة النسائية ذات القاعدة الحضرية، لكن نادراً ما كانت أصواتهن تُسمع. وفي هذا الكتاب، تعرض المؤلفة المفاهيم الموجودة لدى النساء الريفيات واللاجئات عن عوالمهن الاجتماعية، وإنتاج العلاقات والهويات الخاصة بالذكورة والأنوثة وإعادة إنتاجها، والعوالم الاجتماعية الاقتصادية الشديدة القيود التي يعشن فيها. وتحدد روبنبرغ الاستراتيجيات التي تستخدمها هؤلاء النساء لمقاومة الممارسات الأبوية القمعية، وتوضح كيف يستوعبها ويعدن إنتاجها أيضاً. إنه كتاب حزين ومثير للصدمة لأن سيل التعسف والقمع والإمكانات المبددة بصورة عامة، التي تعرضها، يمثل إشارة إلى حالة المجتمع الفلسطيني عند منقلب القرن. فانعدام الدولة والعيش في ظل احتلال بالغ الوحشية يعنيان أن بنى الأسرة والقرابة تبقى المبدأ السائد للتنظيم الاجتماعي والانتماء والهوية.

إن منهج روبنبرغ شبيه بالإثنوغرافيا: مقابلات مع نساء مسلمات ومسيحيات من مختلف الأعمار، ومعطيات تقديرية، وشكل مرن من مراقبة المشاركات وإحصاءاتها عن وضع النساء تثير الرعب وتسبب القلق الشديد: ٥٠٪ من الفتيات يتسربن من المدرسة قبل إكمال الصف الثاني عشر، ولا تشكل النساء أكثر من ١٤٪ من

(* المصدر: *Journal of Palestine Studies*, vol. xxxiii, no. 3 (Spring 2004), pp. 113-115.

القوة العاملة (ص ١٧). وعلم أن ٥٠٪ من المتزوجات يتعرضن للإساءة الجسدية من جانب أزواجهن (ص ٤٢). ومعرفة الفتيات بأجسادهن وانتمائهن الجنسي لا يعتدّ بها. بعبارة أخرى: إنه مجتمع في غمرة حالة قصوى من تخلف مستمر، تفاقمه الأزمة الاجتماعية المعقدة ذات الأبعاد الفائقة الأهمية. وتقول المؤلفة: "لقد أصبحت حياة النساء أكثر تقييداً وحصرًا وعزلة بما لا يقاس مما كانت عليه في فترات أبكر من التاريخ الفلسطيني" (ص ٦٥). ويبرز بحثها الحاجة المطلقة إلى التوثيق التاريخي للتحليلات المتعلقة بالنساء الفلسطينيات. وبالنسبة إلى التطورات الأحدث، تؤكد روبنبيرغ أن الانتفاضة ووصول السلطة الفلسطينية سنة ١٩٩٤، الذي أوهن المبادئ والتنظيم الديمقراطي للقواعد الشعبية، قد ألحق الضرر بالنساء. ومن المفيد مقارنة هذه المؤشرات بتلك المتعلقة بالفلسطينيين في المناطق الأخرى من الشرق الأوسط، وفي فترات سابقة.

ترى روبنبيرغ أن مصدر قمع النساء هو بنى القرابة وهوياتهن في نسيج علاقات القرابة. وتدعي أن إحياء السلطة الفلسطينية للقبلية من أجل الحفاظ على الولاء وتوزيع المكافآت قوى الضوابط الأبوية على النساء، وأن العائلات التي هي أيضاً بمثابة وحدات سياسية تميل إلى وضع ضوابط مشددة على النوازع الجنسية للإناث وحراكنهن وحياتهن العامة.

تحوك المؤلفة ببراعة العناصر الداخلية والخارجية، والعلاقات الأبوية، والأيديولوجيات المترافقة مع الاحتلال ومجيء السلطة الفلسطينية، للتوصل إلى فهم عوامل إخضاع النساء. فالتحدي اليومي لممارسة الرجولة من جانب احتلال يحرم الرجال مصادر هويتهم الذكورية - الأرض والقدرة على إعالة أسرهم وحمايتهم - عزز مكانة المرأة باعتبارها علامة على شرف العائلة واحترامها. وهكذا فإن ثقافة العار والسيطرة، التي تتراوح بين النميمة وجرائم الشرف، وما يعقبها ويقابلها من قيود، يبقيان النساء معزولات ومدركات لعواقب أدق الجوانب في سلوكهن.

وتلاحظ روبنبيرغ بذكاء أن الانتماء الديني، الإسلامي أو المسيحي، ليس له أهمية كبيرة في مسائل الشرف. فقضية المرأة ليست الإسلام وإنما التقاليد، وفي ذلك دحض للباحثين والمحللين المعاصرين الذين يؤكدون يوماً أن الإسلام هو مصدر إخضاع المرأة. على سبيل المثال، تربى الفتيات اجتماعياً على طاعة الآباء والأشقاء واحترامهم. وفي بعض الأحيان يتخلين عن حقوقهن التي منحها لهن الإسلام في رفض خطيب لا يرغب فيه كي لا يغضبن آباءهن.

وتتعلق واحدة من أهم الملاحظات التي تسوقها روبنبيرغ بالحلول التي تعرضها النساء لحل مشكلاتهن الكثيرة. فهن يدركن أن نقص حقوقهن في التعليم والعمل والحراك واختيار الزوج والتحرر من العنف المنزلي والميراث، سببه الأسرة بحد ذاتها.

ومع ذلك فإن "مفهوم العمل معاً مع نساء أخريات من غير الأقرباء كوسيلة لحل الشواغل المشتركة لم يحظَ بالقبول" (ص ١٤٨). ولاحظت أن النساء اللواتي أجرت مقابلات معهن "يعتقدن في معظمهن أن الطول المستقلة (بين الزوج وزوجته) للمشكلات أفضل من أي شيء يشمل تنظيم الإناث أو التضامن أو المجموعات الاجتماعية أو ما شابه" (ص ١٤٨). كما أن هؤلاء النساء يعتقدن أن القوانين التي تحمي حقوق المرأة وتعززها ستكون "عديمة الجدوى" لأن على الحكومة ألا تتدخل في شؤون الأسرة (ص ١٤٩ - ١٥٠). وهذه المواقف لا تبشر بالخير بالنسبة إلى تطور المؤسسات الفلسطينية شبه الرسمية، كما تتعارض تعارضاً حاداً مع الحركة النسائية الفلسطينية الحضرية وفي الطبقات العليا والمتوسطة، التي سعت منذ عقود لتعبئة النساء كي يعملن بانسجام من أجل الوطن وحقوق المرأة.

ويطرح بحث روبنبيرغ أسئلة مثيرة برسم المستقبل: كيف ستكون العلاقة بين القرابة والدولة إذا ما ظهرت هذه الدولة؟ وما معنى المواطنة والوطنية في نظام اجتماعي يقوم على القرابة؟ وعلى الرغم من أن المؤلفة تضع النظام الأبوي والمجتمع القائم على القرابة في موقع الصدارة عند تفسير إخضاع المرأة، فإنها لا تنفك تذكر القارئ بأن انعدام الدولة، والاحتلال، والافتقار إلى نظام تربية وطني، وغياب حكم القانون، والفقر، والعزلة، كلها تعمل معاً لتعزيز روابط القرابة. وعندما يتم الوصول إلى الموارد بواسطة شبكات القرابة، تصبح الحقوق والواجبات متأصلة في هذه العلاقات.

أخيراً تشير روبنبيرغ إلى فشل الحركة النسائية الفلسطينية في دفع قضيتها قدماً. وهي ترجع بذلك بسبب الفشل إلى الافتقار إلى التحليل المنهجي للقدرة الأبوية في المجتمع الفلسطيني وعدم القدرة على مواجهة العلاقات والأيديولوجيات الأبوية والعمل على إصلاحها. ويعمق الاحتلال هذه المشكلات عبر سياسات تعزز سيطرة العائلة والذكور على الإناث وتقويها. إن ما يجعل النظام الأبوي شديد الرسوخ هو ترابط المؤسسات الاجتماعية والأيديولوجيات والأدوار والأخلاق وغيرها، الأمر الذي ولّد نظاماً لإعادة إنتاج الإناث الخاضعات تشارك فيه النساء أنفسهن بنشاط. ولم تعلن النساء أنفسهن رغبة كبيرة في إدخال إصلاحات جوهرية على الأسرة أو المجتمع. وبعد أن تذكر المؤلفة فشل الحركة النسائية ويأس السلطة الفلسطينية وفسادها واستبدالها وإحياءها للقبلية، وتشير إلى الترابط بين التنمية الاقتصادية والاجتماعية والتغيرات في الأسرة، تعلق بالقول: "الفقر واستمرار المشكلات الاقتصادية في مجتمع الضفة الغربية يعملان ضد هذه الاتجاهات" (ص ٢٦٠). إذاً، كيف سيحدث التغيير؟ هذا سؤال دائم تطرحه الدراسات عن المرأة الفلسطينية كما تطرحه النساء أنفسهن. وغياب الدولة، ما مقدار التغيير الموجه الذي يمكن تحقيقه؟ وهل تستطيع النساء أن يكنّ أدوات

تغيير على الجبهة الأيديولوجية وفي علاقاتهن الشخصية والأسرية من دون أن
يصحب ذلك تغيير في القانون والمجال السياسي وفي الاقتصاد؟

جولي بتيت

أستاذة كرسي وأستاذة مشاركة

في دائرة الأنثروبولوجيا،

جامعة لوزيفيل، كنتكي

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>